التصــوف

التصوف:

إن نـزوع الإنـسان نحـو التـصوف مـرتبط ولاشـك بمحاولتـه الأولى للحصول على فهم شمولي موحد للكون ككل.

المعرفة الصوفية هي جزء من نظرية المعرفة الفلسفية في جوانبها النظريـة والعملية. ولابد من مناقشة التجربة الصوفية واسـتعراض الأفكـار الإيجابيـة والنقدية للمنهج الصوفي السني والفلسفي. تقول المستشرقة الألمانية (آنا ماري شيمل) في كتابها الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف).

الكتابة عن (الصوفية) أو الروحانيات في الإسلام تكاد تكون مستحيلة، فمن أول خطوة يخطوها سالك هذا الطريق يرى أمامـه تـلالاً ممتـدة وهـضاباً وعرة. لا يزداد بالسير فيها إلا استصعاباً للوصول إلى أي غاية) ثم قالت: (إن التصوف هو أكبر تيار روحي يسري في الأديان كلها).

(وهو الذي يعني إدراك الحقيقة المطلقة، والتصوف يمكن أن يعرف بأنه (حب المطلق) أو البحث المتواصل عن الله عز وجل.

وتقسمها إلى صوفية اللا حـدود أو صـوفية اسـتبطان الـذات. قـال ذو النون (التفكير في ذات الله جهل، والإشارة إليه شرك، وحقيقة المعرفة حـيرة) قال الهجويري في مقام القرب والتبجيل ما يلي (فرق بين من احترق من جلاله في نار حبه، وبين من استنار بجماله في نعيم المشاهدة).

ثم قالت: ولذلك قال علماء الغرب: (إن التصوف نبتة غريبـة في صـحراء الإسلام والعجب تصور الخروج من عباءة الإسلام وهي حركة روحية سامية) واختلف الفقهاء في التصوف، وعمموا أحكـامهم فيـه فمـنهم المنـصف الـذي

كتب وناقش وفرق بين الغلاة من الصوفية الفلاسفة والصوفيين المتقيدين بالكتاب والسنة. ومنهم من شنع فيهم القول وكفرهم وجعلهم كالزنادقة والمجوس وخاصة ابن عربي وابن الفارض والسهروردي المقتول، والحلاج وابن سبعين والجيلي حتى وصل التكفير والاحتقار للمعتدلين كالغزالي والفضيل بن عياض وعبد القادر الجيلاني وأبي الحسن الشاذلي والرفاعي وهؤلاء المشنعون من غلاة السلفيين كابن تيمية وابن الجوزي والبقاعي.

وإن المسيرة في البحث المتكامل للمعرفة الصوفية تحتاج إلى دراسة متوسعة عن الصوفية والتصوف في الإسلام.

مراحل نضوج وتطور التصوف:

بدأت المرحلة الأولى للتصوف في القرن الثاني الهجري على أيدي الزهاد الذين استقوا الزهد والتبتل من القرآن الكريم والسنة وعلى رأس هؤلاء يعتبر كل دارس لهذه المرحلة أنه الحسن البصري ومعه مجموعة كأمثال سليمان الداراني، وابن الأدهم، ومالك بن دينار ورابعة العدوية ثم تطورت إلى منهاج متكامل في القرن الثالث الهجري على رأسهم الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى: واستمر هذا التصوف دون شطح ومع التقيد بالكتاب والسنة ثم ظهرت في القرن الرابع والخامس الهجري الشطحات الصوفية، والتصوف الفلسفي ورائدها ابن الفارض وأبو يزيد البسطامي وابن عربي والحلاج والسهروردي والجيلي ونقدهم الغزالي والمحاسبي وعاد بالتصوف إلى الاستنباط الكامل من القرآن والسنة.

وبدأت الطرق الصوفية تتشعب وتتنوع وتنمو حتى صارت مدرسة كبيرة منتشرة في كل العالم العربي والإسلامي.

التصوف الفلسفي:

يعتمد على الرمزية في أعلى صورها، وظهر في تائية ابن الفارض، والفصوص لابن عربي والإنسان الكامل للجيلي وبذلك ظهرت إشكالات وحدة الوجود، والحلول، والاتحاد. قال العلامة بدر الدين بن الأهدل وهو من أعيان صوفية اليمن (اعلم أن ابن الفارض من رؤوس أهل الاتحاد).

وقال الغزالي في الإحياء (إن الكلام إن كان ظاهراً في الكفر بالاتحاد فقتل واحد ممن يقول به أفضل من إحياء عشرة أنفس). ولكن الباحث المدقق يجد أن العديد من المهاجمين للتصوف الفلسفي يعملون أقلامهم تزويراً ولا يبحثون عن الحقيقة وقد حقق محمود الغراب في بيتين أثبتهما ابن القيم في كتابه مدارج السالكين هامش صفحة 60 قال ابن القيم عن ابن العربي أنه قال:

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلف

وهذان البيتان موجودان في أربعة كتب من كتب الشيخ ابن عربي وهي مواقع النجوم، والتنزلات الموصلية، وكتاب المسائل وفي الصفحة الأولى من كتاب الفتوحات المكية ولكن بالنص التالي:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنى يكلف

فانظر إلى التزوير الذي أكده عبد الرحمن الوكيل في تحقيقه لكتاب سماه (مصرع التصوف) وهو تزوير حتى في العنوان لأن الكتاب لبرهان البقاعي اسمه (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي).

والشيخ محي الدين يقول:

الاتحاد محال لا يقول به ... إلا جهول به عن عقله شردا

ويقول ابن عربي في ديوانه:

إن جـاءكم نـص بـضد الـذي ذكرتـه مـع الهـدى يمـشي

تمـسكوا منـه بأهدابـه وألقـوا الـذي ذكـرت في الحـش

ابن الجوزي والتصوف:

الصوفية تعود إلى كلمة صوفه للغوث بن مر.

وقال: ذهـب قـوم إلى أن التـصوف منـسوب إلى أهـل الـصفة ويهـاجم الصوفيين وذكر مثالهم ومنهم أبـو طالـب المكـي حيـث قـال في كتابـه قـوت القلوب (ليس على المخلوق أضر من الخالق) وهاجم كتاب الحليـة لأبي نعـيم الأصبهاني.

كما هاجم القشيري والغزالي.

وإذا أردنا أن نناقش كل هؤلاء الذين لم يجـدوا مـن التـصوف إلا الحلـول ووحدة الوجـود والاتحـاد فهـم كثـير أمثـال عبـد الـرحمن الوكيـل، والبقـاعي، والاستنبولي وجميع السلفيين والوهابين وعلى رأسهم ابن تيمة وغـيرهم الـذين لم يجدوا في التصوف الأخلاق، والإخلاص، والـصفاء والـسمو والتعـالي. وكـان التصوف في مراحله قد تسامى وازداد سمواً وأعطت المثل الرائع في نماذج كثـيرة كأمثال عبد الله بن المبارك، وعبد القادر الجيلاني والغزالي، والكثير والكثير.

ثم تجمد التصوف وصار تصوفاً فلسفياً انحرف عن بعض أهدافه. قـال الشعراني:

كان التصوف حالاً فصار كاراً، وكـان احتـساباً فـصار اكتـساباً، وكـان استناراً فصار اشتهاراً، وكان إتباعاً للسلف فصار اتباعاً للعلف، وكـان عـمارة للصدور فصار عمارة للغرور، وكان تجريداً فصار ثريداً.

نقد التصوف:

اتخذ المتصوفة موقفاً سلبياً من النقد الذي وجهه المخالفون لهم، والنقد يؤدي إلى التصحيح قال ابن عربي (إن طريق الكشف والشهود لا تحتمل المجادلة والرد على قائله) والصوفيون ينصحون تلاميذهم الابتعاد عن النقاد ويصبغ بوترو اعتراض الصوفي على النقد بالعبارة التالية (إن الظاهرة الصوفية تجربة، وهي تجربة تقصر المعاني والألفاظ عن التعبير عنها، ولن يعرفها أحد إلا صاحبها نفسه الذي جربها ومثل هذه الظاهرة لا يمكن دراستها من الخارج، وجميع العلامات الخارجية التي نزعم بوساطتها تكوين فكرة عنها عاجزة عن الكشف عنها) الصوفي (يعيش على اعتقاد مؤسس على مبدأ يسمو على الاستدلال ألا وهو التجربة).

إن الرمزية الصوفية في ذاتها تعكس عجز المتصوفة عن إيصال حقيقة وجدانهم بلغة مفهومة ولأسباب كثيرة من اصطلام الروح على أتون المعرفة والإلهام والقرب والأنس. وهذه الرمزية قد تصل إلى معاني واسعة كتعريف نيكلسون عن الكشف الصوفي قائلاً: (العلم بخفايا الغيب المجهول، الذي ينكشف في رؤيا جذبته).

وعند الدكتور عفيفي (فيض من النور الإلهي الذي تنغمس فيه الروح وينكشف به سر الحقيقة).

وإن سر انتقال الغزالي من الفقه والأصول إلى التصوف هو الشك الذي عاش فيه. ووضح ذلك في كتابه (المنقذ من الضلال).

قال رسل: إن فلاسفة التحليل المنطقي (يعترفون صراحة بأن العقل البشري يعجز عن إيجاد إجابات حازمة عن كثير من المسائل ذات الأهمية

القصوى للإنسان، ولكنهم يرفضون الاقتناع بأن هناك وسيلة للمعرفة (أسمى) نستطيع أن نكشف بها عن الحقائق التي تخفى على العلم وعلى العقل (التصوف والمنطق).

وكارل بوير يعترف ضمناً بأن للعقل حدوداً لكنه يصرح (أنضم إلى جانب العقل بكل جوارحي، حتى أنني حيثما أحس أن التعقل قد جاوز حدوده أظل مؤيداً له، مؤمناً بأن المبالغة في هذا الاتجاه لا تؤذي حقاً إذا هي قورنت بالمبالغة في الاتجاه الآخر).

قال د. توفيق الطويل (من الحق أن يقال أن الظاهرة قد يستقيم وجودها مع الحمل بتفسيرها والقصور عن تعليلها) المعتزلة رفضوا التصوف والزهد حتى قال القاضي عبد الجبار (ليس الزهد من إمارات الحق).

وكرس القاضي المعتزلي مساحة كبيرة من الجزء الخامس عشر من موسوعة المغني لنقد التصوف ونقد الكرامات والخوارق.

وابن حزم الأندلسي يستند في هجومه على التصوف إلى ظاهرة الاختلاف والتباين في أقوال المتصوفة عن الموضوع الواحد مما يعده تناقضاً تسقط معه مصداقية هذه المعرفة الإلهامية.

يقول ابن حزم (إن المدعين للإلهام.. لا يتفق اثنان منهم على ما يدعيه كل واحد منهم إلهاماً.. فصح بلا شك أنهم كذبة).

المعتزلة يهاجمون مصطلحات التصوف، المكاشفة، والتجلي والقرب وقال القاضي المعتزلي (أعلم أن التقرب مأخوذ في المعنى من القرب، فحقيقة ذلك لا تجوز على الله تعالى، وإنما يصح ذلك في الأجسام التي يصح عليها

القرب والبعد) ويردون على التباين والاختلاف بأن الصوفية ينهلون من معرفة ليس لها حدود وليس لتذوقها نهاية.

يتساءل الدكتور عثمان يحيى (أليس وجود الحق مطلقاً حتى عن قيد الإطلاق فكيف يمتنع عليه تعالى تجليه الذاتي من خلال صفاته وكمالاته اللامتناهية أو تجليه الخارجي الفائق من وراء حجاب الحرف والكلمات البشرية/ 101 الكتاب التذكاري (ابن عربي).

الفخر الرازي: سلم بوجود المعرفة الصوفية ولم يكن متصوفاً ولكنه سمى هؤلاء المتصوفة (أصحاب الحقيقة) واعتبرهم (خير فرق الآدميين).

وإن النقد على التصوف لم يكن على ذكر الله ولا على التوبة والخشوع، والمراقبة، والإخبات والتجلي والأنس بالله وبذكره وبالتهجد والصوم والجوع ومخالفة الغش. وإنما انصب الهجوم على الاتحاد والحلول ووحدة الوجود وعلى رموزها كأمثال ابن عربي وابن الفارض وأبي يزيد البسطامي والجيلي والسهروردي المقتول وابن سبعين.

وهجومهم على مصطلحات التأحد، والفناء والجمع أو الفناء الشهودي. وميز ابن القيم (عد مقام الفرق بعد الجمع مقام صاحب التميز والفرقان) ولم ينكر ابن تيمية وابن القيم وجود الإلهام.

وركز ابن تيمية وابن القيم على وحدة الوجود عند ابن عربي وغيره وكان مذهبهم في الفناء (القناعة عن وجود السوى) وهو يعتبر عند ابن تيمية وتلميذه (فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود) وابن عربي قال: (ما ثم في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله فكل هو وبه ومنه وإليه ولو احتجب عن

العالم طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة) رسائل ابن عربي ج1 ـ رسالة الأنوار ص 1 ـ 2.

وابن تيمية ميز بين الوحدة الشهودية والوحدة الوجودية ورفض الأخيرة ولا ينكر الأولى ويقول ناقداً حالة التوهم النفسي عند بعض السائلين فيقول: (هؤلاء قد لا يتعمدون الكذب، ولكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج).

ولكن وليم جيمس (يؤكد بوجود مناطق خفية من الشعور يمكن للإنسان عن طريقها معرفة عالم غير منظور).

ولذلك يعتقدون بالبصيرة الكاشفة والاعتقاد وبالوحدة. وهذا مما أدى إلى هجوم رسل على التصوف لهجومهم على العقل. وتم الهجوم على التصوف لكونه طريقاً باعتباره وسيلة إلى غاية غير مضمونة النتائج، إنه لا يفضي حتماً إلى المعرفة التي هي بالأصل إلهامات ومواهب، وهاجموا تحول التجربة الفردية إلى طرق وعلاقة بين الشيخ والمريد على أساس الطاعة التامة (من لم يكن له شيخ لا يفلح أبداً) الرسالة القشيرية ج2 ص 735.

ثم ظهر مدعون متلبسون بلباس الصوفية فانحرفوا عن الصوفية مما أدى إلى الهجوم على التصوف.

قال ذو النون المصري محذراً المريد (إياك أن تكون للمعرفة مدعياً أو بالزهد محترفاً.. كل مدعٍ محجوب بدعواه عن شهود الحق).

النقد ومصادر النقد للمعرفة الصوفية:

1 ـ النقد المعرفي السلبي: هذا النقد يرفض وجود هذه المعرفة أصلاً ويعتبرها دعوى باطلة ومحض ادعاء كاذب وهذا الاتجاه يرفض التصوف جملة وتفصيلاً.

2 ـ النقد المعرفي الإيجابي: هو اتجاه نقدي يسلم بوجود التجربة الصوفية ولا ينكر إمكان حدوثها ولكنه يقرر أن ليس للتجربة الصوفية قيمة معرفية عامة (ابن رشد ـ ابن خلدون، التفتازاني).

3 ـ النقد الفقهي الأصولي وهو يعد بحثاً لإثبات تعارض بين التصوف والشرع؛ ابن حزم، ابن الجوزي وهاجم ابن عربي هؤلاء الفقهاء وسماهم أصحاب علم الرسوم كما هاجم الفلاسفة وأصحاب علم الكلام الذي أنكروا الصلة بين الشرع والتصوف.

4 ـ النقد النفسي (درس ظاهرة المعرفة الصوفية على أنها ظاهرة مرضية تصيب النفس الإنسانية، ويرد بعض علماء النفس مثل وليم جميس وهنري دي لاكروا على هؤلاء.

المراجع: التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين د.محمد شيخاني.

هل في القرآن والسنة تربية روحية د.محمد شيخاني.

عوارف المعارف للسهروردي.

مدخل إلى التصوف الإسلامي د. أبو الوفا التفتازاني.

التصوف في الميزان د. مصطفى علوش.

دراسات في التصوف الإسلامي د. محمد جلال شرف.